

القصص

- ١ - رسالة إلى جارِ عالم . ٢ - تريد النوم . ٣ - من مذكرات حلم .
٤ - صبي شرير . ٥ - فانكا ٦ - في الحمام .

رسالة إلى جارِ عالم

جارى العزيز مكسيم . . جُئِدَ علىّ بالمعذرة لنياساني بقية اسمك ،
ولا تؤاخذنى ، أنا الحرم العتيق والمخلوق الغيبي ، بحرأتى على إزعاجك بهذا
الكتاب الذى ينطوى على الثثرة ، والسخف .
مضت سنة كاملة على تفضلك بسكنى هذا الجزء من العالم ، مجاوراً
لى - أنا الذبابة الحقيرة - لكننى لم أتعرف إليك طوال تلك السنة ، كما
أنك ما زلت تجهلنى تماماً ، فهل تأذن لى الآن ، أيها الجار العزيز ،
بأن أتعرف إليك ، بواسطة هذه الرسالة ، وأن أصفح يدك العالمة ! . .
وأرحب بمقدمك من بطرسبورغ ، إلى منطقتنا الرثيفية هذه ، التى لاتليق
بمقامك .

لا أذيع سرّاً ، إن قلت لك : إننى كنت دائم التفكير ، فى كيفية
الوصول إليك ، لأنّ العلوم هى أمنا المبعجلة ، وهى والمدنية صنوان ، وهذا
ما دعانى لأن أحترم ذلك الرَّهط من الناس ، الذين ذاع صيتهم ،
وأحيطوا بهالات المجد ، وأكاليل الغار ، وتحلوا بالأوسمة والأوشحة ،
وراحت أسماؤهم تدوى كالرعد فى جميع أرجاء العالم المرئى ، وغير المرئى .
إننى أحب الفلكيين والشعراء والكتاب والطبيعيين والكماويين وغيرهم
من كهنة العلم الذين تعتبرُ نفسك أحدهم بفضل ما قدمتهُ من براهين

واقعية وما توصلت إليه من نتائج وثمرات وما وضعته من مصنفات ومؤلفات إبان جلوسك بين أدواتك وموازينك وكتبك الأجنبية المحلاة بالصورة المغربية . .

لقد زارني مؤخرًا في أملاكي : أو في أنقاضى وخرايبي ، جارى السيد جيراسيموف ، ولما تناولنا الحديث عنك ، هاجم آراءك بصدد منشأ البشر ، وغير ذلك من مظاهر العالم المرئي ، وثار على جوك الفكرى النير . وعلى أفقك الذهني الرائق ، إلا أنني لم أوافقته على اعتراضاته ، لأننى أحيا بالعلم وأنغذى بلبانه ، ذلك العلم الذى هيأته العناية الإلهية للجنس البشرى ، ليتمكن بمعونته من استخراج المعادن والآلى من بطون الأرض .

ومع ذلك فالمعذرة يا جارى العزيز إذا أقدمت - أنا الحشرة التى لا تكاد تراها العين - ودحضت بعض آرائك . .

أفادنى جيراسيموف ، أنك وضعت كتاباً عرضت فيه مسائل على درجة عظيمة من الأهمية ، تدور كلها حول كيان الإنسان الفطرى الذى عاش قبل الطوفان . لقد تكلمت وذكرت فى كتابك هذا أن الإنسان تحدّر من فصائل المارموزيت ، والأورانغ أوتانغ ، وهلمّ جرّاً . فهل لك أن تعذرني إن خالفتك فى هذه النقطة الهامة ، وأدليت لك بحجج توفيقك عند حدك ؟

اعلم أننا - نحن بنى الإنسان - سادة الكون ، وأنبه جميع الأحياء التى تدب على الأرض ، فلو كان مردنا إلى القردة الجاهلة البلهاء ، لكان لنا أذنان ، وأصوات وحشية ، ولكان النور يطوفون بنا فى المدن والقرى ، فيتلهى بعضنا برؤية بعض ونحن نرقص ، أو نجلس القرفصاء فى أقفاصنا الحديدية !

قل لى يا جارى العزيز : هل تكتسى أجسامنا بشعر القردة ؟ . .

أولاً نتدثر بمالابس حُرْمٍ منها ذلك الحيوان ؟ . . ثم . . هل كان بمقدورنا أن نحب المرأة أو فاحت منها روائح كآتى تفوح في حديقة الحيوانات؟ فلو كان أسلافنا قد تحدرُوا من القرود ، فهل من المعقول أن يدفنوا في مقابر مسيحية ؟ . . إن جدتي الأكبر أمفروسي الذي عاش في أيام السيادة البولونية ، دفن إلى جانب الراهب الكاثوليكي واكيم شوستاك ، ولم يدفن بوصفه قردياً !

أستميحك العذر ، لأنني تدخلت في شئونك العامية ، وفرضت عليك آرائى الممجية الحرقاء ، هذه الآراء ، التي إذا اطلع عليها العلماء والمتقفون ، فسرعان ما تدخل إلى معدهم قبل رؤوسهم ! . . ولكن ما عساي أن أعمل ، وأنا لا أقدر على الصمت إذا ما رأيت العلماء لا يفكرون كما ينبغي عليهم أن يفكروا .

وأحاطني « جيراسيموف » عاماً ، بأن لك نظرية خاطئة بصدد القمر أيضاً . آمل ألا تهزأ مني - أنا الرجل الهرم - إذا ما لمست سخفياً فيما أكتبه لك .

أجل ! تفترض أنت أن القمر تسكنه قبائل بشرية تنتشر في جميع أنحاءه ، لكنني أجزؤ وأدحض افتراضك هذا بقولي : لو أن القمر مأهول ، لسترت بيوته ، ومزارعه عنا نوره الساحر الأخاذ ! . . ولانقطعت عنا الأمطار ، وآل مصيرنا إلى الملاك ، لأن المطر يسقط من عليّ على الأرض ، وليس على العكس ، ولوقع سكانه على الكرة الأرضية ، وهذا أمر لم يحدث قط . . ثم ألا يغمرنا القمر بأقداره لو كان مسكوناً ؟ . . وهل يتمكن ساكنوه من البقاء على سطحه إن أحسوا وجوده ليلاً فقط وافتقدوه نهراً ؟ . . ثم هل تسمح حكومات الأرض للناس بسكنى القمر ، ولا تخشى من أن يصبح مأوى للعصاة والمجرمين ؟ . .

وقال لي « جيراسيموف » أيضاً : إنك ذكرت في مؤلفك الثمين أن

في الشمس ، وهي أعظم كوكب منير ، كلفناً أو بقعاً سوداء ، غير أنني
 أنني ذلك نفيًا قاطعاً . وأسألك ، كيف تمكنت من رؤية تلك البقع ،
 أنت عاجز عن التطلع إلى قرص الشمس ؟ . . ثم ما الفائدة من تلك
 البقع ؟ ومن أية مادة مائعة تتكون ؟ . . أولاً تجففها حرارة الشمس ؟ !
 يخيل لي أنك تعتقد أيضاً بوجود أسماك تسبح في تلك البقع ! سامحك الله .
 أي جاري العزيز . هل لك أن تعذرني - أنا الغبي - لأنني حاولت
 تحديد بعض المسائل العلمية بمثل هذه الترهات ؟ ألا أغفر لي موافق
 هذه ، وتؤكد بأنني قد كرست حياتي لخدمة العلم فغدت أجنحته بمثابة
 ستار يقوم ما بين عيني ، ونزوات المال .

إن كل اكتشاف يكتشفه العاماء ، يسبب لي آلاماً كالآلام
 الناتجة عن وخز المسار في الظهر ! . . وبالرغم من جهالتى - أنا الملاك
 القديم - فإننى أتابع أعمالى فى حقل العلوم والكشف ، وأصنعها بيدي !
 وأملاً رأسى التافه ، وجمجمتى المتوحشة ، بمجموعة من الأفكار الهامة ،
 والآراء العظيمة .

إن أمنا (الطبيعة) هى سفر جليل علينا أن نطالعه ونشاهده ! . .
 أخبرك أننى توصلت إلى اكتشافات عديدة بمجهودى الخاص ، اكتشافات
 لم يسبقنى إليها أحد . . وأقول ، غير متبجح ، إننى حصلت على معارفى
 بمجهدى وعرق جبينى ، لا بثروة والدى ، فثروة الآباء كثيراً ما تقضى
 على الأبناء بما توفره لهم من جاه عريض ، ومساكن ذات ستة طوابق ،
 وخدم ، وأجراس كهربائية . فهناك ما اكتشفه عقلى الرخيص :

اكتشفت أن شمسنا الكبيرة - المتدثرة بثوب من الأشعة النارية -
 تطلع على الكون فى أحد الأصباح ، ومرة فى السنة فقط ، بمجموعة
 نفيسة من الألوان المتناسقة ، فتخلع عليه بريقاً عجبياً ، يأخذ بمجامع
 القلوب . . ثم توصلت إلى اكتشاف آخر : يتساءل الإنسان كثيراً عن

سبب قصر النهار في فصل الشتاء ، وطول الليل فيه ، في حين تنعكس الآية في فصل الصيف . . .

فتفسير ذلك ، أن النهار يقصر شتاءً لأنه يتقلص من البرد ، مثل كل الأشياء المرئية ، وأن الليل يطول ، لأنه يتمدد بفعل نيران المواقد ، ومصاييح البيوت والشوارع !

واكتشفت أيضاً أن الكلاب في فصل الربيع تأكل النباتات مثل الحراف . . . وأن القهوة تؤذي أصحاب الأمزجة الدموية من الناس ، فهي تحدث في رؤوسهم دوارة ، وفي عيونهم غبشاً . . .

وتوصلت إلى اكتشاف أشياء كثيرة أخرى ، مع أنني لا أحوز شهادات ثانوية أو جامعية .

تعال إلى بيتي - يا جاري العزيز - فعسى أن تكشف شيئاً معاً ، وندرس الآداب معاً ، وأتلقى عليك دروساً شتى في الرياضيات .

قرأت منذ أمد غير بعيد أن أحد العلماء الفرنسيين وجد أن هيئة الأسد لا تشبه أبداً ملامح الإنسان ! . . وهذه نظرية لها خطورتها ، أترك التحديث عنها إلى أن نلتقي في القريب العاجل . فتكرم واحضر إلى بيتي ، ولك أن تحضر غداً مثلاً . حقاً إننا الآن صائمون ، ممتنعون عن أكل اللحوم ، لكننا سنهيء لك على كل حال أكلاً متواضعاً ، وأعلمك أن ابنتي نتاشينكا ترجوك أن تجلب لها معك بعض الكتب العميقة الأفكار، فهي فتاة متحررة تعتقد أنها تنفرد في العقل والإدراك ، وأن كل ما حولها من الناس ليسوا إلا جهلة أغبياء .

سيزورني بعد أسبوع أخى إيفان ، فهو رجل طيب القلب ، لكنه ملكي النزعة ، ولا يميل إلى العلوم .

وسيحمل رسالتي هذه إليك خادمي تروفيم ، وسيسلمك إياها في تمام الساعة الثامنة مساءً ، فإن جاءك متأخراً ، فاعلم أنه عرج على خمارة ،

واصفعه على وجهه صنعة أستاذ قدير !
 لست أنا أول من يبتكر عادة التزاور بين الحيران ، ولا آخرهم ،
 ولذا ، ألحُّ عليك لتزورني فاحضر ، واجلب معك كتبك وأدواتك ،
 لقد كان بودى أن آتى بنفسى إليك ، لكننى جدّ خجول ، وتنقصنى
 المرأة الأدبية . .
 أخشى أن أكون - أنا الرجل الرّجس - قد أزعجتك برسالتى
 هذه ، فعدرة .
 وتفضل بقبول احترامات جاويش الفيلىق القوزاقى المتقاعد ، والمتحدر
 من صلب الأشراف » .

جارك

واسيلى سيمى بولاتوف

تُرِيدُ النُّومَ

كان الوقت ليلاً

وكانت الخادمة فارقا . وهي فتاة في الثالثة عشرة من عمرها تهز سرير طفل مولاها ، وتغني له أغنية بصوت خافت أشبه بالهدير ، تقول في مطلعها :

أهدهدك أيها الطفل وأغني لك أغنية جميلة .

وكان في إحدى زوايا الغرفة أيقونة ، عُلِقَ فوقها قنديل أخضر ترك زجاجه ظلاماً داكناً على السقف ، وامتد في الغرفة أيضاً حبل نُشِرَ عليه لفائف الطفل وسروال أسود كبير وقد خامت هذه الأشياء على الموقد ، وسرير الطفل والفتاة معاً ظلاماً طويلاً ، وكان كما اهتز القنديل اهتز معه ظلمة على السقف . وتحرك ظل اللفائف والسروال . وكان الهواء في الغرفة محتبساً ، فانبعثت منها رائحة الحساء ممتزجة برائحة مصنوعات من الجلود .

طال الوقت على الطفل وهو يبكي ويصرخ حتى بُسِحَ صوته وخارت قواه . أما فارقا فعبثاً كانت تحاول النوم ، لقد أغمضت عينها ، وتدلى رأسها على صدرها ، وخبيل إليها أن وجهها قد جف وتحجر ، وأن رأسها صغر حتى غدا حجمه كحجم رأس اللبوس ، ومع ذلك كانت تغني بصوت خافت هو أشبه بالهدير :

أهدهدك أيها الطفل وأغني لك أغنية جميلة .

وكان للأصوات الصادرة عن صراخ الطفل ، وصرير سريره وهدير فارقا وشخير رب البيت وصفير الجُدُجُد في جدران الموقد ، أن تألفت

مع بعضها البعض فعدت تشبه الموسيقى الليلية المهددة ، التي يحلو للمرء الاستماع إليها وهو مستلق على فراشه ، غير أن هذا اللون من الموسيقى إنما يثير الأعصاب ، ويضغط على التنفس ، ويطرد النعاس ، ويقهر النوم .

كان القنديل يهتز ، وكان ظله وظل اللوائف والسروال يترججان ويندسان في عيني فأركا الجامدتين ، شبه المغمضتين فينعكسان في رأسها المثقل بالنعاس على شكل أحلام يكتنفها الغموض من كل جانب .

ترأت لفاركا غماماً سوداء : تطارد الواحدة الأخرى في كبد السماء ، وتصرخ كما يصرخ الأطفال ، ثم ما عتمت الريح أن هبت ، فاختمت الغمام فجأة . وظهرت للفتاة طريق مغطاة بطبقة من الأحوال الكثيفة ، ازدحمت فيها عربات النقل ، وتدافع الناس بالمنالك وهم يحملون أمتعتهم على ظهورهم ، وكانت هناك أشباح تتقدم القوم ، أو تسير خلفهم ، وترامت على جانبي الطريق أحراج التفت برداء من الضباب الرطب ، ثم ظهر للفتاة أن هؤلاء الناس والأشباح يسقطون على الأحوال دفعة واحدة فتتقدم هي نحوهم وتسلمهم : ما السبب في ذلك ؟ فيجيبونها : نريد النوم ! نريد النوم ! ويستغرقون في نوم عذب ، على حين تقف الغربان والعقاعق ، على أسلاك البرق وتحدث صراخاً أشبه بصراخ الأطفال وهدفها من ذلك إيقاظ النيام ! . .

وتهدر فأركا وهي في حالة من اللاوعي :

أهدهدك أيها الطفل وأغنى لك أغنية جميلة .

ثم ترأى لها أنها في كوخ يسوده ظلام حالك احتبس فيه الهواء ، وبلغ مسمعيها صوت والدها المتوفى « أفم ستيبانوف » وهو يتلوى على فراش المرض ، وقد حانت ساعته ، إنه لا يقوى على النطق بكلمة واحدة لكنه كان يستنشق الهواء ، ويخرجه من بين أسنانه مجزءاً آ . . آ . . آ . .

وترأت لها أمها « بيلاجيا » وقد هرعت إلى بيت من كانت تخدم
عندهم لتخبرهم أن « أفيم » يلفظ النفس الأخير . فطال أمد غيابها ،
وآن لها أن تعود ، ثم ها هي ذى تسمع وقع أقدام ... إنه طبيب كان في
ضيافة مولى أمها ، فلما جاءتة مستنجدة أرسله برفقتها ليعود أفيم .
وترأى لئماركا أن الطبيب يدخل الكوخ دون أن ترى له وجهاً في
الظلام ، ثم سمعته يسعل ويقول : أوقدوا النار !
فأجابه المريض : آ . آ . آ . . .

وأسرعت بيلاجيا إلى الموقد وراحت تتامس علبة الثقاب ، ولما لم
تعثر عليها أخرج الطبيب علبة من جيبه أشعل عوداً منها .
وهنا ، سمعت الفتاة أمها تقول لأفيم : صبراً يا شيخى صبراً ؟
وخرجت من الكوخ وبعد برهة وجيزة عادت وببيدها شمعة أضاءت
أرجاء الكوخ ، فظهر أفيم مسجى على الأرض ، ولخديه لون مثل لون
الزهر ، ولعينيه بريق خاطف ، ونظرة حادة .
قال الطبيب مخاطباً أفيم : ما الذى دهاك ؟ تشجع ! وانحى عليه ؛
وما إن تفرس في وجهه حتى قال : أمن زمن طويل وأنت تعانى هذا
المرض ؟

فأجابه أفيم هامساً : وما الذى تراه يا سيدى ؟ هل حانت ساعة
مفارقى لعالم الأحياء ؟

قال : طب نفساً يا أفيم ، سنعمل على شفائك بإذن الله .
— شكراً لك يا سيدى . ولكن ما الفائدة من العلاج إذا ما حل ملك
الموت ؟

فحص الطبيب المريض لمدة ربع ساعة ، ثم نهض وقال : لا بد
من نقله إلى المستشفى على عجل . إن علمته تتطلب إجراء عملية جراحية ،
هيا إلى مستشفى المدينة .

قالت بيلاجيا : أيها الطبيب إننا لا نملك وسيلة لنقله .
قال : لا بأس عليك سأتصل الآن بمولايك وأسأله أن يتكرم بنقل
زوجك على عربته .

وتراءى للفتاة أن الطبيب يخرج من الكوخ : وتنطفئ الشمعة ،
وتسمع صوت أبيها مرة ثانية يقول مرتعشاً : آ . . آ . . آ . .
ثم تأتي العربة ، ويدخل جماعة إلى الكوخ : ويلفون المريض
بالأحزمة ويرحلون به .

ويسفر الليل عن صباح رائق ، وتذهب بيلاجيا مبكرة إلى المستشفى
لتعرف ما حل بزوجها ، وينجبل إلى الفتاة أن طفلاً في مكان ما يبكي . . .
وأن هناك من يغني له بصوتها ويقول :
أهددك أيها الطفل وأغني لك أغنية جميلة .

ثم ها هي ذى أمها تعود ، وترسم إشارة الصليب على صدرها ، وتتحدث
بصوت خافت ، أخذوه ليلاً ، وعند الصباح توفاه الله فانتقلت روحه إلى
الملوكوت السماوى . . حيث الراحة الأبدية .

ويراءى للفتاة أنها تركت الكوخ ، وذهبت إلى الغابة المجاورة تبكي
أباها ، وإيها! كذلك إذ بها تفاجأ بضربة شديدة على ظهرها ، طوحت
بها على شجرة صنوبر ، ولما تطلعت إلى الوراء مذعورة وجدت نفسها
أمام مولاها صانع الأحذية يقول لها : خسئت أيها اللعينة . تنامين والطفل
يبكى الساعات الطوال ؟

وقرص أذنها . فاهتز رأسها . . واهتز السرير .
وغنت أغنيتها ، ورقص ظل القنديل الأخضر على السقف ، وترجع
ظل السروال واللفائف ، وعاد إلى مخيلتها منظر الطريق المغطاة بطبقة من
الأوحال الكثيفة ، والناس الذين يحملون أمتعتهم على ظهورهم وهم يتدافعون .
والأشباح التي تفرش الأرض وهي تغط في سبات عميق .

شاهدت فأركا هذا المنظر فطاب لها النوم ، وودت لو يتاح لها أن ترقد إلى جانب تلك الأشباح ، غير أن الهذيان نقلها على حين غرة إلى حالة ثانية من الرؤى فوجدت نفسها تسرع في سيرها إلى جانب أمها بيلاجيا ووجهتهما المدينة ، سعياً وراء العمل ؛ ولما صادفت أمها أحد المارة ، مدت له يدها مستعطية وقالت : حسنة لله ! . . .
وهنا تضطرب فأركا ، فتسمع صوتاً مألوفاً يقول لها بشدة وصرامة :
هاتِ الطفل . . . هاتِ الطفل . . . تنامين أيتها الحسيمة ؟

فتتمتبه فأركا مذعورة ، وتجيل النظر فيما حولها . فيتبين لها أن كل ما شاهدته لم يكن غير هذيان . . . فلا طريق هناك ، ولا أب ولا أم ، ولا مارة ولا أشباح ، وإنما هي مولاتها تقف في وسط الغرفة ، وقد جاءت لترضع أصغرها .

وبينما كانت السيدة البدينة ذات الكتفين العريضتين منهمكة بطفلها ، انتصبت الفتاة في مكانها جامدة واجمة ، تنتظر بفارغ الصبر انتهاء مولاتها من إرضاع الطفل . . . وكانت السماء في تلك الساعة ، تميل إلى الزرقة ، فاصفر نور القنديل ، وأخذ ظل السروال واللفائف يختفي ويتلاشى شيئاً فشيئاً ، فهذه العلامات إنما تؤذن بقرب انبلاج الصباح .
دفعت ربة البيت الطفل إلى الفتاة ، وقالت لها وهي تزرر صديريها :
هالك الطفل ، ضعيه في سريره ، إنه لا يفتر عن البكاء ، لا شك في أنك أسأت معاملته .

أضجعت فأركا الطفل في سريره وجعلت تهزه كسابق عاداتها ، وكان ظل القنديل والسروال واللفائف يضمحل بالتدريج ، فأحست الفتاة بالراحة للحلاصها من أثره المزعج ، إلا أنها كانت تشتهي النوم كأعز أمانيتها ، فأسندت رأسها إلى السرير ، وأخذت تهزه هزاً عنيفاً لكي تطرد النوم من عينيها المتعبتين ، ورأسها المتقل .



وإن هي إلا دقائق ، حتى سمعت مولاهما يقول :

— فاركا . . أشعل النار في الموقد ! . .

وكان هذا الأمر إشارة إلى أنه قد آن لها أن تنهض ، وتبادر إلى

العمل .

فهبت الفتاة ، وأسرعت الخطى إلى الحوش تجتمع الحطب ، وكانت تقفز من مكان إلى آخر فرحة جدلة . ففي الحركة ما يبعد عنها شهوة النوم ، وفي إشعال النار في الموقد ما يبعث الدفء في جسمها ، فينبسط وجهها المتحجر ، ويصحو فكرها المتبلد .

وفي هذه الأثناء ، قالت ربة البيت : فاركا هيبى الشاى ! . . .

ولم تكد الفتاة تضع الفحم في الموقد وتذكى فيه النار ، حتى قال

لها رب البيت :

-- فاركا ، نظفي الحذاء . .

فجلست على الأرض تنظف الحذاء ، فساورها سلطان النوم ، واستولت عليها رغبة جامحة لتدخل رأسها في هذا الحذاء الكبير البعيد الغور ، وترقد فيه ولو ساعة من الزمن ، وإذا بالحذاء ينمو وينتفخ ، ويستوعب الغرفة كلها . ثم ثابت الفتاة إلى رشدها ، وألقت بالفرشاة جانباً ، وجعلت ترج رأسها وتفرك عينيها ، وتحملق في الأشياء حتى لا تتضخم في نظرها ، ولا تتزحزح من مكانها .

ثم سمعت صوتاً يقول لها : فاركا اغسلي السلام !

فتلبي الفتاة الطاب ، وتغسل السلام ، ثم تكنس الغرف ، وتشعل النار في مواقد أخرى ، وتذهب إلى حانوت مولاهما وترتبه ، وهكذا كانت تجد وتعمل بلا انقطاع غير واجدة لنفسها دقيقة واحدة للراحة والاستجمام .

لكن فاركا لم تستصعب شيئاً أكثر من عملها في المطبخ ، فإذا

ما وقفت تقشر البطاطا شعرت بأن قوة تجذب رأسها نحو الطاولة ، وأن

حبات البطاطا تتحرك أمامها وتقفز ، وأن السكين تتماثل في يدها وتسقط على الأرض ، هذا وربة البيت البديئة تتبختر في المطبخ وتصرخ في وجهها ، وتسمعها قارص الكلام .

ثم ينتضى النهار ، وتتطلع الفتاة إلى النوافذ فترى الظلام ينشر ستاره على البلدة ، فتضغط على صدغها وتبتسم مسرورة ، دون أن تجد لهذا السرور سبباً ، وكل ما كانت تحسه هو أن العتمة تداعب عينها الناعستين ، وتعددها بنوم هنيء عاجل .

وبعد تناول القوم العشاء ، بدأت السهرة وجاء الضيوف فنادى رب البيت الفتاة قائلاً : فاركاً أضعى النار في الموقد ، فتشعله ثم تقف على قدميها ساعة كاملة محذقة بالضيوف منتظرة الأوامر ، فيلتفت إليها مولاها ويقول : فاركاً أسرعى واشترى لنا ثلاث زجاجات من النبيذ !

فتشبُّ من مكانها وتخف إلى تلبية طلب مولاها معللة النفس بأن الحركة تطرد النعاس ، وحينها تعود يبادرها مولاها بقوله : فاركاً آتينا بزجاجة الثودكا على وجه السرعة .

وبعد أن غادر الضيوف المنزل ، أطفأت الفتاة الأنوار ، وذهب كل من في البيت إلى فراشه ، وكان آخر أمر تلقته الفتاة من مولاتها : فاركاً هزى سرير الطفل ! . .

وعاد الجُدُّ جُدُّ إلى الصفير ، كما عاد انعكاس القنديل الأخضر يتأرجح على السقف ، وظلُّ السروال واللفائف ، يغمز عيني الفتاة شبه النائمتين ، ويثقل رأسها . وعادت هي بدورها إلى الحدير :
أهددك أيها الطفل وأغنى لك أغنية جميلة .

لكن الطفل لا يعبأ بأغنية فاركاً ، ولا بهزها لسريه ، فيتابع بكاءه وصراخه ، فتقع الفتاة في الحديان من جديد ، فترى الطريق الموحلة ،

والناس والأشباح ، وأمنها بيلاجيا ، ووالدها أفيم ، ترى كل شيء وتفقهه كل شيء ، باستثناء أمر واحد استعصى عليها إدراكه وهو : ماهية تلك القوة التي تقيدها من يديها وقدميها وتشدد الحناق عليها ، وتحول دونها والعيش اضنيء ؟

أجالت الفتاة النظر خوفاً باحثة عن تلك القوة الخفية . فتطلعت إلى انعكاس القنديل ، وأنعمت النظر في ظل السروال واللثائف . وأرذمت السمع إلى صراخ الطفل . وبعد أن قضت فترة أليمة في البحث والتفتيش ، إذ بقمها ينفرج بابتسامة الرضى . لقد عثرت على ذلك الحصم اللدود الذي ينكد عليها حياتها . . إنه الطفل !

قهقهت فأركا ، وساءلت نفسها باستغراب : كيف لم يدر بخالدي من قبل هذا الأمر التافه ؟ . . وخيل إليها أن الجدد ، وانعكاس القنديل وظل السروال واللثائف ، كلها تضحك منها وتعجب كيف لم تفقه ذلك إلا الساعة ؟

وعلى ذلك ، غدت فأركا أسيرة تصور مربع كاذب ، فهضت عن كرسيها ، وعلى شفتيها ابتسامة عريضة ، وسارت في الغرفة ، وهي خاضعة لفكرة تسرها وتدغدغها !

قهقهت الفتاة ثانية ، وغمزت بعينيها ، وهددت الظل بأصبعها وتسالت إلى السرير ، وانحنيت على الطفل !

وبعد أن نم لها ما أرادته ، خيم السكون على البيت ، فانطرحت على الأرض تفهقه بملء شديقيها ، وإن هي إلا ثوان حتى استغرقت في نوم عميق ، هادئ ، وكأنها قد فارقت الحياة !

من مذكرات حالم

في التاسع من شهر مايو أخذت إجازتي السنوية لمدة ثمانية وعشرين يوماً ، وسألت أمين صندوق دائرتنا أن يقرضني مبلغ مئة روبل ، وعقدت النية على أن أقضى تلك المدة في حياة بذخ واسعة النطاق ، تجعلني أعيش بذكراها ، وبذكراها فقط خلال عشر من السنوات .

أتعرف كيف تكون تلك الحياة ؟ إنها لا تكون بذهابك إلى المسرح الصيفي لمشاهدة أوبريت على ضوء القمر ثم عودتك إلى البيت في الصباح نشوان . . . وهي لا تعني ذهابك إلى المعارض ، ومن ثم إلى حلبة سباق الخيل ، حيث تأمل أن يأتيك الريح وإنما هي أن تجلس في القطار وتتجه نحو الهواء الطلق المشبع بعبق البنفسج ، وزهر الكرز . . . هناك حيث حبات الندى الماسية تداعب نظرك ببياضها اللطيف ووبريقها الأخاذ ، حيث الأراضي المنسيحة والسماء الزرقاء ، حيث تنبسط أمامك الأحراج الخضراء ، وتكون في عشرة الطيور ، وتستمتع إلى خريف المياه المناسبة في الحداويل ، هناك فقط تدرك ماهية الحياة . أضف إلى ذلك مقابلتين أو ثلاثاً مع صاحبات قبعات القش الواسعة ، والقفازات البيضاء . أقر بأني حلمت بذلك كله بعد أن نلت الإجازة ، وغمرني أمين الصندوق بلطفه وكرمه فأسرعت إلى بيتي وأخذت أتأهب للسفر إلى الريف .

عملت بنصيحة أحد الأصدقاء ، واستأجرت في قرية « بيريريثو » غرفة في بيت السيدة صوفيا بافلوفا كنيغينا ، وقد جرت عملية الاستئجار بأسرع مما كنت أتوقع .

بحثت عن بيت السيدة كنيغينا حال وصولي إلى القرية ، فاهتديت إليه دون كبير عناء ، ولما وطئت قدمي ردهة البيت الخارجية ، دهشت

لما شاهدت فيها من فرش حسن يدل على النعمة وسعة العيش . وقد أثارته دهشتي أكثر من الفرش . تلك الصبية المليئة بالجسم التي كانت تجلس إلى جانب النضد وتشرب الشاي وإذا وقع نظرها على واقفاً مشدوهاً قالت : أتريد شيئاً ؟ قلت : المعذرة يا سيدتي . إنني . . . يبدو لي أنني أخطأت الهدف ، إنني أبحث عن بيت السيدة كنيغينا .

قالت : أنا هي بالذات ، فما الذي تريده ؟

مادت بي الأرض لدى سماعي جوابها هذا ، لأنني اعتدت أن أرى في صاحبات البيوت والفيلات نسوة طاعنات في السن مقعدات . تنبعت منهن رائحة القهوة ، لكنني هنا - أنقذونا يا ملائكة السماء ، على حد قول هاملت - أمام امرأة حسناء ، رائعة فاتنة . . . قلت لها أريد غرفة في بيتك هذا لقضاء إجازتي السنوية .

قالت : آه إن هذا لما يسرني جداً ، تفضل واجلس ، لقد كتب لي صديقك بذلك ، ألا تريد شيئاً ؟ وهل تحبه مع المربي أو مع الليمون .

هناك نوع من النساء - والشقر منهن خاصة - يكفي أن تجلس معهن دقيقتين أو ثلاثاً حتى تظن أنك تعرفهن منذ أمد بعيد ، وأن بيتهن إن هو إلا بيتك .

وهذا عين ما حدث لي من صوفيا بافلوفا ، فما إن شربت عندها الكأس الأولى من الشاي حتى عرفت منها أنها غير متزوجة ، وأنها تعيش على الفائض ، وتتوقع زيارة عمها لها ، وعرفت أيضاً الأسباب التي حملتها على تأجير غرفة في بيتها الريفي هذا . وخلاصة هذه الأسباب أنه يصعب على امرأة أن تدفع بمفردها مبلغ مئة وعشرين روبلاً إيجاراً سنوياً ، وإنه لما يخيف امرأة أن تظل في منزل ريفي وحدها ، فربما هاجمها لص في الليل على حين غرة ، أو ربما دخل عليها فلاح مرعب في راحة

النهار . وعلى ذلك ليس هناك من يلوم صوفيا باقلوقنا إن هي أجرت غرفة بمنزلاً لأحد من الناس . رجلاً كان أو امرأة .

وعلقت صوفيا على كلامها هذا وهي تلتق المربي : ولكنني أفضل مجاورة الرجال : فهم أقل مشاكل وأبعث على الطمأنينة . .
وصفوة القول لم تمر ساعة من الزمن حتى تصافيت مع صوفيا باقلوقنا ، وأصبحنا صديقين حميمين .

ثم قلت لها : تحدثنا عن كل شيء مهم ، وأهمنا الأهم ، فكم تريدان أجرًا للغرفة ؟ سأظل عندك مدة ثمانية وعشرين يوماً ، وسأتناول الغداء طبعاً ، والشاي ، وغيره . .

قالت : وجدت موضوعاً نتحدث فيه . ادفع ما تستطيع دفعه إنني لا أؤجر الغرفة لاعتبارات مالية ، وكل ما أرى إليه ، هو أن أرى الغرفة مأهولة . . أتستطيع دفع خمسة وعشرين روبلاً ؟

قبلت الشرط وبدأت حياتي الريفية . واللطيف في هذه الحياة أن نهارها يشبه نهارها ، وليلها يماثل ليلها ؟ وكم من لذة يجدها المرء في هذه الأيام والليالي المتواترة المتشابهة ؟

أستميحك العذر أيها القارئ العزيز . . . إن أنا عانقتك من شدة الفرح . . لقد كنت أستيقظ صباحاً غير مفكر بتاتاً . أعباء الوظيفة ، فأشرب الشاي مع المربي ، وفي الساعة الحادية عشرة أزور صاحبة البيت لأحييها تحية الصباح ، وأشرب عندها فنجاناً من القهوة مع المرء اللذيذة الطعم ، ثم نأخذ نثرثر إلى أن يحين موعد الغداء .

وأى غداء شهىّ تعده صوفيا باقلوقنا . . . تصور نفسك خائراً من الجوع ، ثم يقدم لك كأس من النبيذ المعتق ، ولحم مشوى مع المقبلات ، ويتبع ذلك حساء الخضار بالزبدة ، ثم غيره وغيره . . . وبعد أن تنتهي من غدائك تضطجع في سريرك ، وتطالع رواية مسلية ، في حين أن صاحبة

البيت تروح وتغدو إلى جانب باب الغرفة وتقول لك : لا تنزعج . . .
نم . . . نم ! . . .

وتنهض بعد التياولة فتشرب الشاي مع المربي ، وعند ما يأتي المساء
تتعشى ، وإذ يأوى الناس إلى بيوتهم ، ولا تعود تسمع في القرية إلا زقزقة
العصافير يتخللها أحياناً صراخ مالك الحزين ، أو صغير قطار آت من
بعيد يبلغ مسمعيك بكل مشقة ، تخرج أنت وصوفيا باقلاوئنا إلى الغابة
القريبة فتسرحان فيها حتى ساعة متأخرة من الليل ، فتارة تلجان الدغل ،
وتارة أخرى تنقلان الخطى على متاريس الخط الحديدي ، وإذا ما أحست
الشقراء المكتنزة الجسم برعشة من برد المساء تشبثت بك ، وحولت إليك
بين الفينة والأخرى وجهها الناصع البياض وقد عكس القمر عليه أشعته
الفضية . . . فيا له من منظر خلاب بديع ! . . .

ولم ينتقض أسبوع على إقامتي عند صوفيا باقلاوئنا حتى حدث
ما تتوقعه أيها القارئ ، وحدث مثل هذا الأمر لا مفر منه لأية قصة
لها وزنها . . . إنني لم أطق الصمت وفاتحت صوفيا بحبي لها . . . فأصغت
إلى غير مكترثة ، بل استمعت في شيء من البرودة ، وكأنها توقعت
ذلك منذ البداية ولوت شفيتها بلطف كما لو كانت تريد القول : وما
الداعي لكثرة التحدث في هذا الصدد ؟

ولت أيام الإجازة كما تولى الثانية الواحدة ، فأخذت أرتب حوائجي
في الحقيبة وأودع النزل وصاحبته وداع المستوحش المتألم ، وكانت صوفيا
تجلس على المقعد تكفكف الدمع ، فاقتربت منها وهدأت من روعها
واعداً إياها بأن أتردد عليها في بيتها القروي هذا في أيام الأعياد ،
وأن أزورها في موسكو في فصل الشتاء .

وقلت : متى نتحاسب يا منى القلب ، وما هو المبلغ المطلوب مني ؟
قالت وهي تغص بالبكاء : نتحاسب فيما بعد ! . . .



قلت : وما الداعي لهذا التأجيل ، فالمثل يقول . . الصداقة صداقة ودع المال جانباً . . إننى لا أود العيش على نفقتك فلا تتعبى نفسك يا صوفيا ، وخبرينى كم تريد منى من الروبلات ؟
أجهشت صوفيا بالبكاء وقالت وهى تسحب درج النضد : هناك مبلغ قافه . . بوسعك أن تدفعه فيما بعد . . ثم تقبت فى المدرج وأخرجت منه كشافاً وقدمته لى .

قلت : وأخيراً ، هذه هى قائمة حسابى ، لقد أحسنت عملاً . . .
ووضعت نظارتى على عيني وألقيت على الكشف نظرة عجلى . . ما هذا ؟!
هذا ليس حسابى يا صوفيا . . إن هذا الكشف يتضمن مبلغاً قدره ٢١٢ روبلا و ٤٤ كوبيكاً ! . . يخال إلى أنك قدمت لى حساب غيرى .
قالت : كلا يا حبيبى ! هذا كشف حسابك ، فافحصه جيداً . .
ولكن كيف تجمع على كل هذا المبلغ ؟ إننى أوافق على دفع خمسة وعشرين روبلا للغرفة كما اتفقنا ، وأوافق أيضاً على دفع ثلاثة روبلات للخادم ، وأما الباقى فلا يدخل فى حسابى بتاتاً .

تطلعت إلى صوفيا بافلاوئنا بعينين باكيتين مستغربتين وقالت :
إننى لا أفهمك يا شقيق الروح ! . . ألا تتق بى ؟ فاحسب إذا أردت .
ألم تشرب الخمر قبل الأكل ؟ .. أو لم تحتس الثودكا فى أثناء الطعام ؟ . .
أو نسيت المربى مع القهوة والشاى والتوت البرى والحضار ؟ . . أمّا القهوة فلم نتفق عليها سلفاً وكنت تشربها مرّات عديدة فى النهار ، ومع ذلك فالأمر تافه وبوسعى أن أخصم لك اثني عشر روبلا . . ولتدفع لى مئتى روبل فقط ! . .

— لكننى أرى فى الكشف مبلغ خمسة وسبعين روبلا ولم تذكرى فى أى باب أنفقت ؟
— أنسيت فى أى باب أنفقت ؟ حقاً إنها لمداعبة لطيفة منك ؟

تطلعت في وجه صوفيا طويلا ، فكان صادقا صافيا ، تعلوه علامات
الاستغراب . . . فانعمد لساني في في ، ولم أنطق بكلمة واحدة ، فقدمت
لها مئة روبل وحررت كبيالة بمئة أخرى ، وحملت حقيبتى على كتفى ،
ووليت وجهى شطر محطة سكة الحديد .
أيها السادة ألا يقرضنى أحدكم مئة روبل ؟ !

صبي شميرير

سار إيثنان إيثنان لا يكتن ، وهو شاب لطيف الحيا ، إلى جانب
 أننا سيميونثنا زامبلييسكايا ، وهي فتاة لها أنف مرتفع الأرنبة ، وكانا
 يتجهان إلى شاطئ البحر ، وإذ بلغاه ، جلسا على مقعد لا يبعد إلا
 خطوات من المياه ، تظله بعض شجيرات الصنمصاب الكثيفة اليافة . .
 إنه لمكان رائع حقاً ، فلو أتيج لكم وجلسم فيه لاستترتم عن العالم ،
 ولما رأكم سوى الأسماك والعنكبوت ، والبريق المتراكمض على صفحة
 الماء . . وكان الشابان يحملان أدوات صيد الأسماك ، من عصي طويلة ،
 وصنارات ، وأذوبة زجاجية تتراحم فيها الديدان ، وما كادا يجلسان حتى
 بدأ بصيدان .

ثم بادر لا يكتن رفيقته الحديث وهو يتلفت يمنا ويسرة : إنني
 جد مسرور في نهاية الأمر . . لأننا غدونا بمفردنا ، أود أن أحدثك يا أننا
 سيميونثنا عن أشياء كثيرة . . فلما شاهدتك لأول مرة . . انتبهى ! . .
 سمكة تقضم صنارتك ! . . أقف وفتند قيمة الحياة . . وعثرت على
 معبودتي التي يجب علي أن أقف لها حياتي الشريفة المثمرة . . انتبهى ! . .
 سمكة تقرض صنارتك ! . . أجل ! حين شاهدتك أحببتك بكل قواي . .
 انظري الصنارة ترتعش ! . . أناشدك أيها العزيرة أن تطمئني قاي . .
 أيمكنني أن أعتمد علي . . كلا ، ليس علي حب متبادل إنني لا أستحقه !
 بل لا أجرؤ علي التفكير فيه . . أيمكنني أن أعتمد علي . . اسجبي
 الصنارة ! . .

ورفعت أننا يدها إلى أعلى وجذبت الصنارة . . وإذا بسمكة فضية

تلمع في الخواء ، فما إن وقع نظرها عليها حتى صرخت تقول : رباہ . . .
شبوٹ . . آہ . . آہ أسرع . . لقد أفلت ! . .

وهكذا أفلت الشبوٹ ، وقفز على الحشائش ، ثم قفز قفزة أخرى
وإذ به يعود إلى موطنه الطبيعي ، ويتخبط في المياه قليلاً ثم يغوص . .
وأسرع لا يكين في أثر السمكة ، وأمسك سهواً بيد أنثى سيميونثنا
بدلاً منها . . ووضعها على فمه ، دون أن يعي ما يفعل ، فاهتزت الفتاة ،
وحاولت التخلص ، ولكن محاولتها جاءت متأخرة ، واحتجاجها اختلف
في حلقها ، لأن الشفاه التقت عفواً في قبلة حارة ، أعقبها قبل أخرى . .
ثم كان القسّم ، وكان التأكيد . . فيالها من دقائق سعيدة ! . .

والشيء بالشيء يذكر . ليس في هذه الحياة الزمنية سعادة مطلقة .
فالسعادة عادة تحمل في ذاتها سمّاً تسمم به نفسها ، أو يأتيها هذا السم
من الخارج ، وهذا ما حدث للفتى والفتاة إذ ما كادا يتعانقان حتى بلغ
مسامعهما ضحك مزعج ، فتطلعا إلى المياه مرتبكين وإذا بصبي عارى
الجسم يقف في المياه حتى الحاصرة ، ويرمقهما بنظرات خبيثة ويضحك ،
ولم يكن هذا الصبي سوى التلميذ كوليا شقيق أنا سيميونثنا . .
وقال لهما الصبي : آ . . آ . . آ . . رأيتكما تتعانقان ، انتظرا
سأقول للماماشا ! . .

فأجابه لا يكين وقد احمر وجهه خجلاً : اسمع يا كوليا ، أنت
صبي شريف ومن الندالة أن تراقب غيرك . ثم من الحطة واللؤم والسفالة ،
أن تنقل ما تراه إلى غيرك ! . . فأملى فيك بوصفك صبيّاً شريفاً نبيلاً
أن

فتقاطع الصبي النبيل قائلاً : أعطني روبلا وإلا بحت بما رأيت . .
فأخرج من جيبه روبلا وقدمه إلى كوليا فتناولوه هذا وضغط عليه
في راحته المبتلة وصفّر ، وابتعد ساجحاً . .

وفي اليوم التالي ابتاع لايبكين من المدينة أقلاماً ملونة وكرة وقدمها إلى كوليا ؛ كما أن شقيقته أهدته كل ما لديها من ألعاب فارغة ، ثم قدما له معاً سلسلة في طرفها رأس كلب ؛ ويبدو أن هذه الهدايا المتوالية لاقت دوى في نفس الصبي الشرير . . فطنق يراقب الفتى والفتاة ، ويشدد عليهما الخناق . فحياً التقيا كان هو لهما بالمرصاد ، لا يفارقهما لحظة واحدة .

وحدث مرة أن اغتاط لايبكين من مضايقة كوليا وقال له وهو يقضم أسنانه غضباً : يا لك من وقح . . إنك مخلوق صغير ، لكنك لئيم كبير ! وانتفضى شهر يوليو؛ كله وكوليا مواظب على تعكير صفو المحبين المسكينين ، وكان يهددهما دائماً بالوشاية بهما ، ولا يردعه عن ذلك إلا الهدايا المتواصلة . وأخيراً أخذ يحدثهما عن ساعة جيب فوعدها بها مرغمين .

وبينما كان ثلاثهم يتناولون الغداء مع بقية الأهل ، قهقه كوليا على حين غرة ، وغمز لايبكين بعينه وسأله : أقول ؟ ! . .

فاحمر وجه لايبكين خجلاً وارتبك ارتباكاً شديداً حتى إنه وضع الفروطة في فمه مع قطعة الحبز . . أما أنا سيميونفنا فما كان منها إلا أن نفرت من مكانها وهرعت إلى غرفة مجاورة تاركة الأهل في حيرة من أمرها .

وظل لايبكين وأنا عرضة لمضايقة الصبي وكثرة مطالبه إلى أن هل شهر أغسطس فتقدم الشاب من أبوى الفتاة طالباً يدها ، وإذ حالفه التوفيق ونال موافقتهما فرحاً فرحاً عظيماً ، وكان أول ما فعله أن عدا إلى الحديقة باحثاً عن الصبي كوليا الشرير فما إن عثر عليه حتى فرك أذنه ، وكانت أننا في تلك الأونة تبحث عن كوليا في الحديقة أيضاً ، فأسرعت إليه وفركت أذنه الثانية .

وللمقارئ أن يتصور مدى الغبطة التي استوت على نفسي المحبين
وهما يصغيان إلى بكاء كوايا وتوسلاته وهو يقول لهما : عزيزي . حبيبي .
لن أفعل . . آخ . . آخ . . ساحاني ؟ !
وقد أقر الزوجان فيما بعد بأنهما لم يتذوقا : طيلة أيام حبهما : سعادة
كتلك التي غمرت نفسيهما وهما يفركان أذنى الصبي الشرير ! . .

فانكا

فانكا جوكوف صبي في التاسعة من عمره ، مضت عليه ثلاثة أشهر وهو يعمل أجيراً عند صانع الأحذية المعلم إلياخين في موسكو ، وفي عشية عيد الميلاد ، كان الصبي يتقلب على فراشه قلقاً مضطرباً يطالب النوم ولا يأتيه .

وإذ انبثق الفجر ، وذهب معلمه مع أسرته إلى الكنيسة ليؤدوا الصلاة ، أسرع فانكا إلى الخزانة ، وأخرج منها دواة ، ومسكة تقبض على ريشة يعلوها الصدا ، فوضعها على مقعد خشبي ، وركع على ركبتيه إلى جانب المقعد ، ثم نشر عليه ورقة بالية ، وهم بالكتابة .

وقبل أن ينحط الكلمة الأولى ، تطاع إلى الباب والنافذة وجلاً ، ثم رمق صورة القديس بطرف بعينه ، وأجال النظر في الرفوف التي تكدست عليها قوالب الأحذية ، وهو يصعد النفس متقطعاً .

وشرع يكتب : « جدّي العزيز .. كونستانتين ماكاريتش هأنذا أكتب لك كتاباً أحبيك فيه تحية عيد الميلاد . وأسأل الله أن يمنحك الخير العميم ، وأن يطيل حياتك ، إذ لم يبق لي سواك بعد أن فقدت أبي وأمي » .

وحول فانكا نظره إلى النافذة ، وكان نور الشمعة يتلألأ عليها ، فتخيل جده الذي يعمل حارساً ليلياً في بيت السيد جيفاروف ، منتصباً أمامه ، وكان جده هذا ، رجلاً قصير القامة ، نحيف الجسم ، في الخامسة والستين من عمره ، إلا أنه ما فتى رشيقاً نشيطاً ، لا تفارق ثغره الابتسامة ، ففي النهار يرقد في المطبخ ، أو يداعب الطاهيات ، وفي الليل يلتف بفروته المهلهلة ويدور حول منزل مولاه ضارباً الأرض بعصاه ،

يتبعه كلباه « كاشتانكا » و « فيون » ، وهذا الأخير أسود اللون ، طويل الجسم ، قريب الشبه بابن عرس ، دقيق النظر ، مدلل محبوب ، ويتمتع بسمعة طيبة بين أربابه والغرباء ، مع أنه كان يخفى تحت لطفه وتواضعه حقداً وخبثاً غريبين ، وليس أقدر منه في التسلل إلى حيث تدفعه حاسة الشم ، كما أنه ماهر جداً في التعلق بأرجل الناس ، وسرقة الدجاج من الفلاحين . . فظالماً رُكل وجلد عقاباً له على وقاحته ، حتى إن بعضهم علقه من عنقه مرتين ، وبالرغم من ذلك كله ، كان « فيون » ينهض وكأن شيئاً لم يحدث له !

تصور فانكا جده واقفاً حسب عادته عند بوابة المنزل ، موجهماً نظره إلى نوافذ الكنيسة الحمراء اللون ، وقد انكمش على نفسه من شدة البرد ، فراح يضرب الأرض بجذائه الغليظ ويفرك يديه ، ويسعل ، ويمازج الطاهيات والحاديات ، ويقرصهن في أيديهن مداعباً مماجنأ ، ثم يُخرج من جيبيه علبة السعوط ويعرضها عليهن متسائلاً : أتردن الاستنشاق؟ فتأخذ النسوة القليل من السعوط ويستنشقنه ، وسرعان ما ينهمكن في العطس ، وجدّ فانكا يضحك مسروراً ويصرخ : هلمكت من الصقيع .

ثم يضع السعوط عند أنف الكلبة « كاشتانكا » فتعطس ساخطة مستاءة ، ويضعه عند أنف الكلب « فيون » فيرى هذا أن من الكياسة والتواضع ألا يعطس ويكتفى بأن يلهو ذنبه . وكان الطقس إذ ذاك جميلاً ، والهواء ساكناً فديماً . وإذ يقبل الليل وتغرق القرية في لجمته ، تبدو البيوت بسطوحها البيضاء ، والمداخن تبعث الدخان أعمدة . . والأشجار وقد اتشحت برداء فضي ، وتدلت عروقها تحمل ذوات الصقيع ، والسماء تعج بالنجوم التي تغامر بعضها فرجة مغتبطة ، والحجرة بدت جلية واضحة ، وكأنها غُسلت عشية العيد ، وفُركت بالثلج . . .

تنفس فانكا قليلاً ، وتابع كتابة رسالته إلى جده فقال :

« اقتادنى معامى أمس من شعرى إلى الحوش ، وانهاك على ضرباً بالسير لأننى هزرت طفله عفواً فغنا . وحدث يوم الأحد الفائت أن طلبت منى معامتى أن أنظف لها سمكة ، فبدأت بتنظيفها من ذنبها ، فحنقت على ، وانتزعتها من يدي ، وزجت رأسها فى فى . . .

« إن غذائى فى هذا البيت ، يتألف من خبز فى الصباح ، وبرغل عند الظهر ، وخبز فى المساء ، ولا أعرف للشاى والحساء طعماً ، أما زوى فى الممر حيث أكون عرضة للبرد القارص .

« وأخبرك يا جدى أن أجراء معامى يهزءون بى ، ويرسلونى إلى الحمامة لكى أحضر لهم الفودكا ، ويسألونى أن أسرق لهم الخيار من بيت معامى ، وهذا يضربنى بكل شىء يقع فى يده ، لأقل هفوة تبدو منى .

« أى جدى العزيز . . . ارحمنى بالله عليك ، وخذنى من هذا البيت إليك ، فليس عندى أية حيلة للإخلاق ، خذنى من هذا المكان ، أنا أقبل قدميك وأدعو لك دائماً ، وإن لم تفعل ، فإننى لا محالة هالك . لوى فانكا فه . ومسح عينيه بقبضته القدرة ، وغص بالبكاء ، ثم واصل الكتابة :

« وسأفرك لك يا جدى الدخان ، وأسأل رضاك ، وإن خالفت لك كلمة فاضربنى ، وإن تبين لك أننى لن أجد عملاً لديك ، فائذن لى بالعمل فى مسح أحذية متعهد القرية ، أو أن أرمى الماعز بدلا من فيدكا .

« أجل يا جدى العزيز ! ليس لى من منقذ سواك . لقد حاولت الفرار مرة إلى قريرتك ؛ لكننى عدلت عن ذلك ، لأننى لا أملك حذاء أقى به قدمى من الصقيع . . . خذنى يا جدى وكن على ثقة بأننى إذا ما بلغت الرشد فسأقابل جميلك بالمثل ، وسأعمل على إعاشتك ، ولا أدع أحداً يسىء إليك ، وإن توفاك الله ، فإننى سأصلى لروحك كما

أصلى لروح أمي .

« إن موسكو لمدينة كبيرة ، وبيوتها فخمة وحيولها كثيرة ، لكنني لا أجد فيها خرافاً ، وكلابها غير مؤذية ، وأطفالها لا يطوفون بالأحياء في ليالي الأعياد ، ولا يسمح لهم بالاشتراك في التراتيل الكنسية .

« ورأيت مرة في واجهة حانوت ، صنابير بعضها ، يستطيع المرء أن يصطاد بها أية سمكة كانت ولو بلغ وزنها الرطل . وشاهدت في بعض المخازن أسلحة مختلفة الأشكال بديعة الصنع ، جميلة المنظر ، والله يعلم كم تساوى من مئات الروبلات . . وشاهدت في بعض حوانيت اللعابين عدداً كبيراً من الدرّاج ، والأرانب ، ودجاج الأحرار ، والعجيب أن الناس لا يستفهمون أبداً عن اصطاد هذه الطيور ! . .

« جدى العزيز . أرجوك أن تتذكرني وقت أن ينصب السادة شجرة عيد الميلاد ، واقتطف لي منها جوزة مذهب ، واحفظها في صندوق أخضر ، والسيدة أولغا إيغناثيفنا لا تعارضك إذا علمت أن الجوزة لي » .

وجه الطفل نظره مرة أخرى صوب النافذة وعاودته الذكريات ، وقت أن كان يذهب مع جده بلحلب شجرة عيد الميلاد ، فيالها من أيام طيبة ! كأننا يذهبان معاً إلى الغابة ، وسط الثلوج ، فيشعل جده غليونه ، ويستنشق الدخان طويلاً ، ويضحك من حفيده الذي يرتعش من البرد ، في حين أن الشجيرات الفتية المكتسية بالصقيع تقف جامدة لا تدرى من منها سيكون نصيبه الموت . . وإذ يمر بهما أرنب منطلق كالسهم ، يصرخ جده بأعلى صوته : أمسك ، أمسك . . آه يا ذنب الشيطان ! . . وبعد أن يقطع جده الشجرة ، يجرها إلى بيت سادته ، وهناك يقبل الكل على تنظيفها وترتيبها ، وتكون أكثرهم اهتماماً بها السيدة أولغا إيغناثيفنا ، حبيبة فانكا .

كانت أم فانكا تخدم في هذا البيت ، وكانت السيدة أولغا تقدم لطفل خادمها للين ، وتعلمه القراءة والكتابة والعدّ حتى المائة ، والرقص أيضاً ، وحين وافى أمه الأجل أحالت السيدة أولغا الطفل اليتيم إلى العمل مع جده في المطبخ . ومن ثم نقل إلى موسكو ليعمل عند صانع الأحذية « المعلم إلياخين » .

وتابع فانكا كتابة رسالته إلى جده وقال :

« احضر إلى موسكو يا جدى العزيز ، أتوسل إليك من أجل المسيح أن تنقلني من هذا المكان ، أشفق على هذا اليتيم التعس . إن كل من في هذا البيت يضربني ، وأنا أشتهي الطعام ، وأتأكد أهلك من الضجر . ولا أنفك عن النحيب ، وذرف الدموع . وحدث مؤخراً ، أن ضربني معلمى على رأسى بقالب الحذاء ، فوقعت على الأرض ولم أستطع النهوض ، إلا بكل مشقة آه . . لقد ضيعت حياتى ! . . إنها لأسوأ من حياة الكلاب ! . . »

« سلامى إلى كل من هيلين ، وإيغور الأكتع ، والسائق ساشا ، وأرجوك ألا تعطى أحداً " مزيكى " . . احضر يا جدى وابق لحفيدك المطيع إيفان جوكوف » . . .

وطوى فانكا الرسالة ، ووضعها في مغلف كان ابتاعه بكوبيك واحد . . وبعد أن أعمل فكره قليلا ، غمس الريشة في الدواة ، وكتب على الغلاف :

« إلى قرية جدى ا »

ثم حلك رأسه بطرف الريشة ، وأضاف إلى العنوان :

« كونستانتين ما كاريتش »

كان سرور فانكا عظيماً لأن أحداً لم يزعجه في أثناء كتابة رسالته هذه ، فهب من مكانه ، واختطف قبعته ، ووضعها على رأسه ، وهرع

إلى الشارع : فى قميصه : ساهباً عن لبس معطفه .
كان رواد حانوت اللحام الذين قابلهم فانكا بالأمس قد أحاطوه
علماً أن الرسائل تلى عادة فى صناديق البريد ، ثم تجمع منها وتوزع
إلى جميع أنحاء العالم ، على زحافات تجرها خيول مطهمة ، ترن فى
أعناقها الأجراس ، ويقودها سواقون سكارى وهكذا أقبل فانكا على أول
صندوق للبريد ، وأدخل رسالته الثمينة فى شقه . .
وعاد الصبي إلى البيت ، واستلقى على فراشه تهدده الأمانى العذبة ،
وبعد ساعة من الزمن ، أغمض جفنيه ، واستسلم إلى سلطان الكرى ،
فشاهد فى نومه جده يجلس على سطح الموقد وقد تدلت قدماه ، وأمسك
بيده رسالة فانكا يقرأها على طاهيات البيت وخادماته . . فى حين
يسير الكلب « فيون » إلى جانب الموقد ، وهو يهز ذنبه . .

في الحمام

كان سيدٌ بدين يغتسل في الحمام ، وإذ لمح من خلال الضباب رجلاً طويلاً نحيفاً . له لحية يهودية ، ويعلق على صدره صليباً صاح فيه قائلاً : أيها الحمأى ؟ . . . ايتنى بالماء الساخن . فأجابه الرجل : ليس من شأنى جلب المياه الساخنة يا سيدى ، فإننى لست بحمأى ، وإنما أنا حجّام ، فهل تود استعمال أقدم الحجامة ؟ . . . ارتاح السيد البدين لهذا السؤال ، وألقى نظرة عجيلى على وركيه الحمراء ، وأجاب : هات أقدم الحجامة ، ولعل فى استعمالها بعض الفائدة . . . فأسرع الحجّام إلى غرفة الاستراحة . وعاد بأدواته : ولم تمض خمس دقائق ، حتى كانت عشرة أقدم "عالقة على صدر السيد وظهره .

وبينا كان الحجّام يضع القدم الحادى عشر ، قال لزبونه : أتذكر يا سيدى وقت أن زرتنا يوم السبت الماضى وقد طلبت منى بعد أن اغتسلت أن أززع الثآليل عن أصابع قدميك ؟ . . . أنا الحجّام ميخايلو . . . أتذكر حين سألتنى عن الفتيات الخاطبات ؟ فأجابه : أجل أذكر ذلك ، وما الذى تريده ؟ . . . قال : لا أريد شيئاً ، لكننى أود إطلاعك على ما أضمره لك من ملامة يا سيدى . . . برغم ما فى ذلك من تعرض لوقوعى فى الخطيئة وأنا مقبل على تناول القربان ، فما أود أن أبوح به إليك يا سيدى هو أن فتياتنا فى الماضى كن يطمحن فى الزواج من رجل قوى ، صارم ، ثرى ، متدين . . . وأما فتيات هذه الأيام فينتهجن طرقاتاً معوجة شائكة . لأنهن يبحثن عن الرجال المتعلمين فقط . قدم لهن رجالاً متعلمين ، والويل لك إن عرفهن إلى رجال من التجار أو الموظفين ! . . .

والمتعلمون يا سيدى على أصناف . فمنهم من يبلغ أعلى المناصب ،
ومنهم من يظل طيلة حياته يخبر الأوراق ثم يموت فقيراً معدماً غير مدخر
ثمناً لنعشه . ومن هؤلاء الناس ، وعددهم لا يستهان به ، شاب متعلم
يعمل فى دائرة البرق ، تراه يحلق كل الأمور حتى اختلاق البرقيات !
لكنك إذا نظرت إليه ، لا يسعك إلا أن تتألم وتأسى لبؤسه ، وهو من
زبائن هذا الحمام الذين يغتسلون بالماء دون الصابون !
وهنا قاطعه رجل بصوت جهورى فيه بُحّة ، وكان يجلس على
المصطبة فى الجوار . وقال :

— عامل البرق هذا فقير لكنه شريف ، وإننا لنفخر بمثل هؤلاء
الناس ونعتز ، فالعلم مع الفقر دليل على سمو النفس ، أفهمت ذلك
أيها الجاهل ؟

تطلع ميخاييلو بطرف عينه إلى مصدر الصوت فرأى رجلاً هزيباً ،
برزت عظام جسمه بروزاً واضحاً فبدا صدره وظهره وكأنهما مؤلفان من
جلد وأضلع فقط ، وكان شعره الطويل يتدلى على وجهه ، فغطاه ولم
تظهر منه سوى عينين سدداً إلى الحجّام وهما تحمّلان كل ما فى النفس
من حقد وازدراء .

فتمتم ميخاييلو قائلاً : أنت منهم ! أنت من أصحاب الشعر الطويل ! ..
ومن ذوى الأفكار ؟ .. يا للفظاعة لقد تكاثر هؤلاء القوم فتعذر اقتناصهم
كلهم .. هه .. إن الأحاديث المسيحية تزعم هذا الهيكل العظمى ..
إنه يتحمس للمتعامين ؟ ..

ثم تلفت الحجّام إلى زبونه وقال له : إن فتيات اليوم يملن إلى مثل
هذا الرجل .. أرأيت أمراً أبشع من هذا الأمر ؟ لقد دعنتى فى الحريف
الماضى ابنة أحد القسس وقالت لى : ميشيل — وربات البيوت اللائى
أخدمهن فى زينتهن ينعتننى بهذا الاسم — هل لك أن تبحث لى يا ميشيل

عن عريس من أصحاب الأقلام ؟ ! ولحسن حظها كنت أعرف أحدهم واسمه بورفيرى إيميليانيتش ؛ كان يقبع دائماً فى إحدى الحمامات ويخيف روادها بنشر أسماءهم فى الصحف . وكان كلما أتاه صاحب الحمامة ليقبض ثمن الفودكا ، همس بورفيرى فى أذنه قائلاً : أتطلب منى دراهم ؟ ألا تعرف من أكون ؟ . لا تنس أنى قادر على أن أعلن عنك فى الصحف أنك من كبار المجرمين ! . . . ولما كان بورفيرى هذا شاباً شبه عار ، رث الثياب ، سهل على إغراؤه بمال ابنة القسيس . أطلعتة على رسمها ، واقتدته إليها بعد أن استعرت له ثياباً جديدة . غير أن الحظ لم يواته ، فلما رآته الأنسة أشاحت بوجهها عنه قائلة : إننى لا أرى فى محيّاها أمارات الحزن والألم ! . . . والواقع أن ابنة القسيس نفسها لا تعرف من من الرجال تريله .

وعاد الرجل صاحب الصوت الذى فيه بحة ، وعلّق على حديث ميخايلو قائلاً : إنك تفترى على الصحافة أيها الخسيس . فأجاب الحجّام : أتنتعنى بالخسيس ؟ . . . إنه لمن حسن طالعك أننى مقبل على تناول القربان وإلا لأسمعتك كلاماً جارحاً . . . أملك من طبقة الكتاب أيضاً ؟ . . . قال : كلا ، لكننى أطلب منك ألا تتحدث عما لا تدرك كنهه . . . لقد كان الكتاب فى روسيا كثيرين ، وقدموا لبلادهم خدمات جلييلة ، بل إنهم ثقفوا العالم قاطبة ؛ ولذا يجب علينا أن نذكرهم مفتخرين بهم لا شائمين ؛ وإننى أعنى بهؤلاء الكتاب لا العالمانيين فحسب بل الروحانيين أيضاً . . . فأجاب الحجّام : إن الكتاب الروحانيين لا يعنون بأمور كالتى تدافع عنها . . .

قال : حقاً إنك لا تفقه ما تتفوه به ، إن ديمترى روستوفسكى ، وإينوكينتى خرسونسكى ، وفيلاريت موسكوسكى ، وغيرهم من رؤساء

الكنيسة ساهموا مساهمة فعالة في نشر العلوم والمعارف .
 فنظر ميخايلو بظرف عينه إلى خصمه ثانية ثم حول وجهه نحوه
 بسرعة وصاح فيه : يبدو لي أنك من أولئك يا سيدى ! من ذوى الأفكار !
 وليس من العيب أنك قد أطلت شعر رأسك ! . . أجل إننا أدرى بهذه
 الأمور : وسنريك الآن من تكون !

ثم نهض الحجاجم وقال لزيبونه : دع يا سيدى الأقداح على جسمك ،
 وسأعود إليك على وجه السرعة . . وخرج ميخايلو يجر وراءه سرواله
 المبتل ، وذهب تورا إلى الباب الخارجى ، حيث كان يجلس رجل قزم
 يبيع الصابون ، خاطبه قائلا : سيخرج من الحمام الآن رجل طويل
 الشعر ، فعليك أن تراقبه ، إنه يمرض المستحمين ، أفهمت ؟ . . إنه
 من ذوى الأفكار . . أسرع فى طلب نازار زاخاريتش ! . . فأجابه
 القزم : أخبر الصبية بالأمر . فالتفت ميخايلو إلى الصبية الواقفين عند
 ألبسة المستحمين ، وقال لهم : سيخرج من الحمام الآن رجل طويل
 الشعر ، إنه يبت فى الناس روح التمرد ! . . تتبعوا أثره وأسرعوا فى إخبار
 صاحبة الحمام لكي تبعث فى طلب نازار زاخاريتش ليحقق معه ! . .
 إنه رجل خطر ، يتلفظ بعبارات مخيفة . . إنه من ذوى الأفكار ! . .

فما إن سمع الصبية هذا الكلام حتى ارتسمت على محياهم علامات
 الارتباك ، وقالوا للحجاجم : أين هو هذا الرجل ذو الشعر الطويل ؟ إننا
 لم نر بين الزبائن رجلا ينطبق عليه وصفك هذا ، فالذين نزعوا ألبستهم
 هنا هم ستة أشخاص : تريان ، وتاجران ، ووجيه ، وشماس . . فلعلك
 تقصد بصاحب الشعر الطويل أبانا الشماس ؟ فأجاب ميخايلو : إننى
 أعنى ما أقوله ، فلا تحاولوا تضليلي أيها الشياطين . . ثم نظر إلى ألبسة
 الشماس ، ولمس رداءه الكهنوتى ، فساورة الشكوك وسأل الصبية : بم
 تميزون صاحب هذه الألبسة ؟ فأجابوه : إنه نحيف ، أشقر الشعر ،

له لحية كثة ، ويسعل كثيراً . . فامتنع لون الحجّام لدى سماعه هذا الجواب ، وراح يوبخ نفسه قائلاً : إنني هاجمت شخصية قدسية لها مكانتها في الكنيسة فيا للخطيئة . . وما عسى أن أعمل الآن وأنا مقدم على تناول القربان . . المغفرة يا إلهي لقد أخطأت وعلى أن أذهب إلى أبيتنا الشماس أسأله السماح .

تألم ميخائيلو لما حدث له تألماً شديداً ، وعاد أدراجه إلى داخل الحمام بخطوات غير متوازنة ، فشاهد الشماس وقد أفضجّ رجليه إلى جانب الصنبور وهو يصب الماء الساخن بالطاس على جسمه ، فاقرب منه وخاطبه بصوت باك : « أسألك السماح أيها الشماس ؛ من أجل المسيح سامح هذا الشقي ! »

فالتفت إليه الشماس مستغرباً وقال : علام أسامحك ؟ . .
 فزفر الحجّام زفرة طويلة ، وجثا عند قدمي الشماس وقال :
 - لقد ظننت . . أن في رأسك أفكاراً ! . .